وادي الظلال

الجزء الثاني

الفصل الثامن

رن جرس الساعة التاسعة يؤذن بالراحة الليلية فأُطفئت الأنوار في القسم مـا عدا النور قي غرفة سلمى وزميلاتها.. لقد كانت الغرفة محتشدة بالمريضات وهن يمنين أنفسهن سماع حفلة "أم كلثوم".. وأخفت صـوت المـذياع كـي لا يـزعج الراغبات في النوم.. ولكن نجيبة زوجة فريد لم تشأ أن تمر الليلة بسلام وأنغـام.. لقد كانت تريد مناسبة تطلق فيها الغيظ الكامن في صدرها من فتيات الغرفة، ومن المذياع لأن فريد يتردد بسببه على الغرفة. فاشتبكت هي والآنسة هيفا في مشاجرة عنيفة.. وطردت المريضات الضعيفات بالعنف وأطفأت النور وحرمت الجميع من الاستمتاع بأغاريد المطربة الخالدة.. ولم يكفها ذلك بل أوغرت صدر راهبة القسم " الأخت تريز" على الفتيات، فجاءت في اليوم التالي عند الظهر تنتقض غـضبا، واشتبكت هي الأخرى مع الآنسة هيفا، باعتبارها كبيرة الغرفة المسؤولة عن كـل انحراف في الأنظمة.. وبلغ بها الاحتداد مبلغه، فما كان منها إلاّ أن حملت المذياع وقذفت به من النافذة ثم خرجت..

ولقد تشابك موضوع غضبها واستفحل حين أبت الفتيات الذهاب إلى المطعـم احتجاجا على تصرفها وأخذن في تناول طعام مما لديهن.. فعادت الراهبة لتثيـر شرا أنكى وأعنف وراحت في ثورتها تفرغ الكوميـدينات مـن محتوياتهـا مـن الأطعمة وغيرها وتقذف بها من النافذة.. وهجمت على فتاة قروية نزلت الغرفـة حديثا وشغلت مكان يولا فاستضعفتها، ونزعت عنها الأغطيـة بعنـف وسـحبتها بفظاظة من فراشها..

وكانت سلمى خلال تلك العملية تنتفض وتنظر إلى الراهبة بعينـين نـاريتين متحديتين، ولقد حفزت نفسها لتتصرف تصرفا أحمق، فيما إذا اقتربت منها الراهبة وأساءت إلى كرامتها ولكنها لم تجرؤ.. أما إقدام فلقد كان الرعب والعجز باديـان في عينيها.. وانتابت الآنسة هيفا نوبة عصبية فأخذت تبكي وترتجـف.. وبـدت

جورجيت حزينة هادئة.. فهي الوحيدة التي لم تمس كوميدينتها بأذى فأمها تحميها وحرارتها المرتفعة تبيح لها تناول طعامها في السرير.. ولم تكد تخـرج الراهبـة حتى أصيبت الآنسة هيفا بتشنج وأغمي عليها، وكان قد تقاطر إلى الغرفة بعـض المريضات يشهدن الحادث فالتففن حول سريرها، وكثر الصياح واللجب، فهرعت سلمى إلى الراهبة تبحث عنها فوجدتها في إحدى الغرف وهتفت لاهثة الأنفاس:

- الآنسة هيفا.. أغمي عليها!..

- إنها كاذبة.. إنها تمثل..

فقالت سلمى محتدة:

- لقد بلّغتك! فإذا حدث للآنسة هيفا حادث فأنت مسؤولة أمام الله والمسيح عـن مصيرها!..

وخرجت سلمى مسرعة إلى غرفتهـا قبـل أن تخونهـا أعـصابها وتنفجـر دموعها.. فوجدت إحدى الممرضات تسعف الآنسة هيفا وتزرقها إبرة لتنعشها..

وأخذت سلمى أثناء ذلك تخطّ رسالة قصيرة إلى الراهبة تعنفها بمـزيج مـن الجرأة واللباقة والرفق.. وكانت سلمى واثقة أنها ستلامس قلبها فتندم ولا تعود إلى مثل تصرفها، ولكن حين ذهبت الممرضة ليلى بالرسالة إلـى الراهبـة وكانـت الأخيرة في الغرفة الداخلية الصغيرة في المطعم توزع العشاء على المريضات من الكوة، وفريد يساعدها بدل نجيبة التي توعكت صحتها، لم تسمح لنفسها بقراءتها، واعتبرت الأمر إهانة فمزقتها ونثرتها على الأرض وهي تصيح بعـصبية.. فمـا كان من فريد إلا أن لملم المزق وأودعها جيبه..

وفي اليوم التالي دخلت الراهبة مشرقة الوجه تحمل المذياع الذي احتجزتـه، ولم يكن أصيب بسوء لأن الأرض التي وقع عليها ترابا.. وكـان عليـه غطـاء مطرز من صنع يديها وقالت باسمة بطيبة وكأنما لم يحدث بالأمس شيء..

- إنك منذ زمن وأنت تطلبين مني غطاء مطرزا..

وابتسمت الآنسة "هيفا".. وانقشعت الغيوم بينهما.. لقد جاء فريد إثـر خـروج الراهبة وضحك حين رأى المذياع.. وقالت الآنسة هيفا:

- ما أطيب قلب الأخت "تيريز".. أنظر إلى هذا الغطاء المطرز.. إنه منها..

وقال فريد ملتفتا إلى سلمى:

- إنها رسالتك!..

- ولكنها مزقتها..

- لقد احتفظت بالمزق ولصقتها بمساعدة صديق لي.. ولما قرأها لـي أعجبتنـي فأخذتها إلى الأخت تيريز، وقرأتها هذه المرة.. لقـد طفحـت عيناهـا بالـدموع وأرسلت في طلب نجيبة وقالت لها:

- إياك أن تشتكي لي المريضات مرة أخرى مهما فعلـن، ألا تعلمـين أننـي لا أستطيع السيطرة على أعصابي حين أغضب؟. ليغفر الله لي!.. ليغفر الله لي!..

ارتفعت حرارة سلمى إثر ذلك دون سبب مبرر.. فهي منذ أشـهر لا ترتفـع حرارتها وتُعد حالتها شافية.. بل كانت تأمل أن تعود إلى بلادها في القريب العاجل وتهدهدها الأماني العذاب..

حار الطبيب بالظواهر الجديدة التي بدت له حين فحص سلمى على الأشـعة، ورأى أن يأخذ لها صورة.. وكانت صدمة هزت كيان سلمى حين قال لها:

- إن الجرح لم يغلق، ولم تنجح عملية رفع الرئة التي أجريتها..

فسألت وصوتها يخنقه الأسى والدهشة:

- حقا!.. وماذا أفعل؟..

- دعيني أجري لك عملية الأضلاع قبل أن تتلوث الرئة الأخرى، ويغدو الأمـل في إنقاذ حياتك ضعيفا..

وأحست سلمى أن فخ المرض يطبق عليها الخناق حتى يوردها حتفها.. إنهـا تعلم أن تلك العملية قليلا ما تنجح وحتى إن نجحت فستعيش مشوهة الجسم بعد أن تكسر أضلاعها وتعطل رئتها عن العمل نهائيا..

وقالت وهي تتهدج بالبكاء:

- دعني أفكّر..

- لا مجال للتفكير.. أنقذي حياتك قبل أن يفوت الأوان..

وبدا لسلمى أن الحياة في أسوأ الظروف خير من رقدة الثرى، فقالت وصدرها يزفر زفرات يائسة:

- افعل ما تراه!..

وأكبـ ت على فراشها تبكي حظها التعس، وألح عليها سؤال رهيب:

- أيبقى "أحمد" على حبي بعد أن يتشوه جسمي؟..

أما الراهبة، فلقد خيل إليها أن لها يدا فيما آلت إليه حالة سلمى وراح ضميرها يبكتها.. فهي تصلي وتستغفر الله.. ولا تألُ جهدا في رعاية الفتاة تطعمها بيـدها وتأتيها بطعام فاخر، مما يأكلونه في الدرجة الأولى..

مر أسبوع وسلمى لا تغيب عنها الحمى فضاقت بها وبنفسها وبالحيـاة.. وكانـت الصور اليائسة ترود خيالها فتبكي.. ولم تكن لتشعر بألم عنيـف ولكـن الـوخزة الصغيرة في صدرها أو الخدر في كتفها، أصبح له مدلول آخر، وخيل إليهـا أن منيتها قد اقتربت، وراحت تمثل نفسها مسجاة وأهلها في حزن صـميم.. وأحمـد تروعه الفاجعة ولكنه لا يلبث أن ينسى ويتزوج غيرها.. لقـد سـيطرت عليهـا الأوهام فضاق صدرها بفراشها، وفهمت السر الذي يهرب "إقدام" من سريرها حين تنتابها الحمى..

ودخلت الراهبة باشة الوجه وطلبت إلى المريضات أن يذهبن إلى الساحة، لتصلي كل واحدة حسب دينها صلاة حمد لله لعودة السلام إلى العالم ثم خرجت..

ودخل فريد وسأل الفتيات في أن يبحثن له في المجلات التي عندهن عن صورة ل "ستالين" كي يعلقها في غرفته، ومرت الراهبة مرة أخرى بالغرفة وهتفـت حـين رأت فريد:

- أين أنت؟..تعال معي.. لقد حدثت مشادة بين المرضى من أنـصار "هتلـر" وأنصار الحلفاء عند البوابة!..

وخرج فريد مسرعا.. وأخذت سلمى بالتفكير في هذه الظاهرة العجيبة التي تجعل أبناء قومها منقسمين على أنفسهم مشتتي العواطف والأهداف، نسوا أن لهم عـدوا واحدا مشتركا هو الاستعمار.. هذا الاستعمار الذي فتت قـواهم ونهـب خيـرات بلادهم، وكان من جرائمه، أنهم هنا في هذا المصح يصارعون الموت البطـيء، ولا يدري بهم أحد..

ذهبت سلمى برفقة إقدام مع من ذهب للصلاة من أجل السلام، ولكنها لم تستطع أن تصلي.. إن السلام جميل حين تتطهر الأرض من مستعمريها ومستغليها وتعـيش الشعوب معا على قدم المساواة وتبني الحياة..

وفيما هي تعود أثار نفسها منظر بائس بل فاجع لشاب فرنسي لا يتجاوز الخامسة والعشرين مقطوع الساقين يتركز على عصوين بين رفيقين له، وهو يرتدي لباس ضابط.. كان هو الآخر ذاهبا للصلاة من أجل السلام!..

وأقيم مساء ذلك اليوم مهرجان في الساحة قرب قسم الرجال أطلـق أثنـاؤه الفتّاش والأسهم ابتهاجا بيوم السلام، وألقيت فيه الخطب.. وكان أقوى خطاب قوبل بالتصفيق الحاد، هو ذلك الذي ألقاه شاب وسيم المظهر تبينت فيـه سـلمى ذلـك الشاب الذي كان يمسح الأرض يوم ذهبت لإجراء العملية.. وهمست لها إقدام:

- هذا حليم صديق أحمد.. إنه أديب تقدمي ثائر تطارده الحكومة اللبنانية وهو هنا منذ بضعة أشهر..

ثم أردفت:

- إن كتاب "لينين" الذي أحرقته الراهبة كان له..

- وكانت سلمى وإقدام قد وجدتا لنفسيهما مكانا على درج القسم.. ولم يلبث حين انتهى حليم من خطابه أن تقدم وسلّم على إقدام وسلمى فهنأتاه على خطابه، وسألته إقدام عن أحمد وصوتها يخفيه عن الآذان المتطفلة قرقعة الطلقات..

- وصلتني منه رسالة.. إنه قادم إلى هنا بعد بضعة أيام..

وهتفت إقدام بلهفة:

- مريض أم في زيارة؟.. وبان الأسى في وجه حليم:

- بل مريض.. كان في السجن ذلك الإنسان الشريف الحر.. لعن الله الإسـتعمار وأذنابه.. أخرج بكفالة بعد أن عاوده المرض..

ولم تستطع إقدام أن تخفي تهدج صوتها:

- هل عذبوه؟..

- لا شك في هذا، ولو أن كبرياءه تمنعه أن يذكر ذلك في رسائله..

- لينتقم الله من الأوغاد الخونة.. فاقدي الشرف والإنسانية..

- إن لهم يوما، هؤلاء الأجراء الحقيرين..

والتفت حليم إلى سلمى وسألها باهتمام:

- متى ستجرين عملية الأضلاع؟..

وغاص قلب سلمى بين أضلعها:

- لست أدري.. ولكن كيف عرفت؟..
- أنا الذي هيأت لك الغرفة.. هل ستجرينها دون علم أهلك؟..
- أفضل ذلك!..

وحارت دمعة في عين سلمى فنظر إليها حليم نظرة طويلة مشجعة حنون..

* * *